الأدب في سير أعلامه :

تولســـــتوى . . . !

[قبة من القمم الشوامخ في أدب هذه الدنيا قديمه وحديثه]

للأستاذ محمود الخفيف

— ١ —

طفولة ونسب

أطل من نافذة قصر أنيق أقيم على مرتفع في ضيعة ياسنايابوليانا الجميلة، طفل في الخامسة من عمره ، وقد أعجبه ذلك المنظر البهيج من حوله ، ذلك المنظر الذى ألفته نفسه وباتت تأنس به روحه ويتعلق بجماله حسه .

كان الطفل يمد عينيه الصغيرتين الحالمتين إلى كل ما يحيط به إلى الغابات التي تتناثر هنا وهناك ، وإلى النهر الذى تنثنى صفحته بين هاتيك الغابات فيظهر لعينيه جزء منه وتتوارى خلف الشجر أجزاء ، ثم إلى القرية الهادئة التي تتراءى لعينيه من بين الخمائل تحيط بها على مقربة من النهر برك صغيرة وأخرى كبيرة ، وتبدو كنيستها المتواضعة بجانب الأكواخ والعشش الصغيرة المبنية من الطين وجذوع الشجر ، والتي يفصل بينها طريق عريض هو طريق القرية الرئيسي ؛ ثم يمد الطفل عينيه إلى ذلك الطريق البعيد الذى سمع عنه فيما سمع أنه ينتهي عند مدينة تولا على مسافة عشرة أميال إلى الشمال وهى مسافة يصورها له خياله طويلة بعيدة ؛ وكم يتمنى أن يرى مدينة تولا هذه التي يسمع عنها وعن حياتها الشيء الكثير . وثمة طريق آخر يمتد إليه بصره هو الطريق المؤدى إلى كييف ، وإنه ليتمنى أن يرى كييف تلك المدينة التي يذكر اسمها الناس في احترام وتقديس ، والتي يتقاطر إليها الحجاج مارين بضيعة أبيه في هذا الطريق القديم ...

وإذا رد الطفل بصره وقع على الطريق المنحدر من القصر تحيط به أشجار الليمون ويقوم على جانبي مدخله برجان أبيضان جميلان . ولم يكد يتحول الطفل ببصره عما يرى حتى مشت في صفحة وجهه سحابة خفيفة من الهم ، فقد تذكر أن عهده باللعب قد انتهى كما أخبرته العمة تاتيانا ، وأنه من غده سيدخل حجرة الدراسة كل يوم في ساعة معينة من النهار فلا يبرحها إلا متى شاء معلمه أن يطلقه ... وهو منذ تلك السن يكره القيود كرهاً شديداً فكيف يطيق حجرة الدراسة ويطيق أن يأتمر بما يقضى به المعلم ؟ ذلك ما كان يكرب نفسه الصغيرة ، بعد أن أخذ ذلك المنظر بمجامع عينيه ، فهو يطل على مسارح لعبه ومجال حريته تحت هاتيك الخمائل وفي فناء ذلك القصر .

ولكن الصبي يعود فيذكر أن لا بأس من حجرة الدراسة وما فيها ؛ أو ليس معنى غدوه إليها أنه يشدو كبيراً فيقرأ ويكتب كما يقرأ إخوته ويكتبون ؟ فلا يدل عليه أحدهم بشيء ينقصه هو ولا حيلة له في هذا النقص ، ولا يفاخره منهم أحد بكتبه ودفاتره فسوف تكون له كتب ودفاتر . وتطيب نفس الصبي بهذه الأفكار فهو يكره أشد الكره أن يتفاخر عليه أحد ، أو أن يشعر أنه دون من يحيطون به . وكثيراً ما دمعت عيناه غيظاً إذ يرى لغيره من دواعي الفخر ما ليس له . وهو سريع البكاء إذا غيظ لأنه لا يحب أن يغيظ أحداً . فليقبل إذاً على حجرة الدراسة في غير تكد بل ليقبل عليها في ارتياح . هكذا توحي إليه كبرياء نفسه الصغيرة ، وإنه منذ صغره لذو كبرياء ، وإن كان إذا غضب سريع البكاء .

وكان للطفل واسمه ليو ، ثلاثة إخوة أكبر منه وأخت هو أكبر منها . أما إخوته فهم : نيقولا وكان يكبره بخمسة أعوام ، وسيرجي وكان يكبره بعامين ونصف عام ، وديمتري وكان يكبره بعام وأربعة أشهر ، وأما أخته فهي ماريا ، وكانت دونه بسنة ونصف سنة .

وكانت تعيش مع صغار الأسرة بنت ليست منها وهي بنت غير سفيحة لأحد الأصدقاء المقربين من عميدها ، وكان أبناء الأسرة يحسنون معاملتها كما لو كانت أختاً لهم ، وماذا تصنع غير ذلك نفوس بريئة كهاتيك النفوس التي لم تدر بعد لؤم الحياة ؟ . . .

هؤلاء هم أفراد الأسرة الصغار ؛ فأما الكبار ففي مقدمتهم أبوه ، ثم تأتي بعد أبيه العمة تاتيانا ، ولم يعرف الصبي منذ بدأ إدراكه أماً له غيرها ، فقد ماتت أمه كما يذكر أحياناً أخوه نيقولا في همس وحزن عقب مولد أخته الصغيرة بأيام .

وهناك جدته لأبيه وهي تعيش في هذا القصر منذ مات زوجها ، ثم عمته ألين التي جاءت لتعيش في حماية أخيها بعد أن أصيب زوجها بالجنون فقد بلغ به الجنون أن أطلق الرصاص ذات يوم على صدرها . وكانت ألين هذه عمته حقاً ، أما تاتيانا فكان يناديها بالعمة كما يفعل إخوته ؛ ولكن نيقولا يفهمه ذات مرة أنها ليست عمتهما فهي ليست أختاً لأبيهما فيعجب ليرى لماذا إذاً يدعوها الجميع عمتهم ولا يدرك مكانها من أبيه ولا موضعها من الأسرة ، ولعل نيقولا كذلك لم يكن أقل منه جهلا بهذا الأمر . وكيف يتسنى له أن يعرف أن أباه أحبها في صدر شبابه وأنها أحبته ولكنها أفسحت له الطريق ليتزوج بسيدة غنية يصلح بثروتها حال معيشته إذ رأت منه هذا الميل على الرغم من حبه إياها حباً وثقت منه ؛ وكانت تلك السيدة الغنية هي أمه ، فلما ماتت أمه عاد أبوه يطلب يدها فرفضت أن تتزوجه ولكنها وعدت أن تكون أماً أخرى لبنيه ، وها هي ذي تبر بوعدها فتكون لهم أماً في مكان أمهم .

لم يكن يعرف ذلك نيقولا مفصلا هذا التفصيل فما يجدر أن يُتحدث إلى الأطفال بمثل هذه الأمور ، وحسب أولئك الأطفال أنها تحبهم وأنهم يحبونها حباً شديداً ، وعلى الأخص ليو فقد كان شديد الحب لها قوي التودد إليها . . .

على أن عطف العمة تاتيانا عليه لم يشغله منذ هذه السن الباكرة عن التفكر في أنها ليست أمه ، وإن كان يرى منها مثلما يرى الأطفال من أمهاتهم ؛ وإنه ليسأل نفسه أين أمه ؟ لقد ذكر له نيقولا مرات أنها ماتت وإنه ليرى على وجه نيقولا أمارات الغم كلما أشار إلى ذلك ويرى كذلك دلائل الرهبة والألم . فما هذا الموت الذي حرمه من أمه ؟ إن خياله يصوره له شيئاً كريهاً مخيفاً وإنه ليخاف من إسمه وينفر منه ولكنه لا يدري ما هو .

وإن الطفل ليرهف أذنيه كلما تحدث متحدث عن أمه ، ولئن كان يحزنه أنه لم يرها فإنه يطيب نفساً بما يسمع من صفاتها والثناء عليها ، وإنه ليجد من عطف عمته تاتيانا ما يخفف حزنه ؛ ثم إنه ليزداد حباً لهذه العمة كلما سمعها تذكر بالخير أمه ، وتظهر الأسف على فقدها بكلماتها أو بما يبدو من صور الهم على ملامح وجهها . .

وتقع عينا الطفل في القصر على عدد من المربين والمربيات ، ومن الخدم على اختلاف مراتبهم وتنوع أعمالهم ؛ ويجد لأبيه السيطرة على هؤلاء جميعاً ، فما يلقاه أحد منهم إلا بعبارات التبجيل وتحيات الاحترام ، فيداخل نفس الطفل شعور الفخر بجاه أبيه وعظمته ، ثم إنه إذا مثل بعض هؤلاء الفلاحين الذين يسكنون القرية القريبة بين يدي أبيه رآهم يحنون رؤوسهم خاشعين ، ويخاطبونه بألقاب السيادة والعظمة ، والسعيد منهم من ظفر بأن يده إذا شاء أن يمدها إليه ، ويعجب إذ يرى أباه يخاطبهم أحياناً في ازدراء ويعنف عليهم في لهجة الأمر والنهي ، ويتساءل بينه وبين نفسه لم يترفع عليهم أبوه هذا الترفع ، ولم لا يعاملهم كما يعاملونه ، ولكن نيقولا يخبره إذا سأله أن الفلاحين في الضيعة كلها ملك أبيه وملك أجداده كما حدثته بذلك العمة تاتيانا .

على أنه يعلم فيما يعلم أن القصر والضيعة كانا من أملاك أمه ورثتهما عن آبائها من أسرة فونكنسكي ، ولكن رأسه الصغير لا يتسع لما يقال عن نسب أمه ونسب أبيه ، وإن أخاه نيقولا نفسه الذي كثيراً ما علمه ما لم يكن يعلم يبدو منه العجز والتناقض إذا تحدث عن هذا النسب ، ولا تحدثه العمة تاتيانا عنه إلا بقدر ما تعتقد أنه يفهم .

* * *

لم يكن يستطيع الطفل في تلك السن أن يدرك حديث نسب أبيه ونسب أمه فإنه حديث طويل وتاريخ قديم . . .

كان بطرس أندرفتش تولستوي أول فرع سامق من فروع أسرة تولستوي التي نبتت أصلها في ألمانيا من زمن بعيد ؛ وقد

بدأ صعود هذا الفرع في عهد العاهل العظيم بطرس الأكبر الذي ولي أمر الروسيا في أواخر القرن السابع عشر .

حارب بطرس أندروفتش تولستوى في معركة أزوف عام ١٦٩٦ ؛ وأرسله القيصر بعد ذلك إلى أوروبا ليتعلم بناء السفن ؛ وفي مستهل القرن الثامن عشر عينه سفيرا لروسيا لدى الباب العالي ، ولما اشتبكت الدولتان في حرب عام ١٧١٠ ألقى به في سجن الأبراج السبعة ، وكان باقي فيه السلطان بالسفراء الذين يكون بينه وبين دولهم حرب ، ولما عاد بطرس إلى بلاده عام ١٧١٤ وصل إلى منصب الوزارة ...

ولم ينس العاهل الجبار بطرس الأكبر صنيع وزيره هذا إذ أرسله إلى إيطاليا ليعود بابنه أليكسى ، وكان قد هرب من بلاده خوفاً من غضب أبيه عليه لما كان من معارضته إياه في إصلاحاته ، ولم يزل به ذلك الوزير الماكر يغريه ويمنيه ، ويستعين عليه سراً بخليلته حتى عاد به إلى روسيا حيث أسلمه إلى الموت نكال أبيه ، وجزى بطرس رسوله بالمال والضياع الترامية . ومما يروى عن القيصر العظيم أنه في أواخر أيامه كان يمس بكفه رأس وزيره قائلا : « أيها الرأس ... ! أيها الرأس ، لولا ما أنت عليه من مهارة لمضى اليوم زمن طويل على الاطاحة بك من فوق كتفيك » .

ويأتي دوران الفلك إلى عرش روسيا بتجل أليكسى بعد ، فيكون أول ما يعنى به القيصر الجديد أن يقتص من ذلك الذي خدع أباه حتى جره إلى مواطن الحتف ، ولئن سقاه أمس جده الكأس علقما فانه اليوم يجرعه إياها علقماً ، فقد جرده من ألقاب شرفه ونفاه إلى أركينجل نفياً لم تكن منه عودة ...

على أن ذلك الفلك الدوار يضع على العرش عام ١٧٤١ القيصرة إليزابت إبنة بطرس الأكبر فترد إلى أسرة تولستوى شرفها وضياعها في شخص أندرو إيفانوفتش تولستوى حفيد ذلك الذي قضى نحبه في أركينجل .

وينمو من هذا الفرع الجديد السامق فرع هزيل رخو هو ابنه إليا تولستوى ، فلقد كان ماجناً مستهتراً ضيق العقل ، بسط يده كل البسط في ثروته العظيمه فبددها ، ثم بدد بعدها ثروة زوجه الغنية ، ولولا أن تداركه بعض ذوى النفوذ والثراء من أقربائه لحاق به سوء ما فعل ، فبفضل هؤلاء عين إليا تولستوى حاكما لقازان واستطاع أن يسترد بعض ما فقد ...

ورزق حاكم قازان بغلام سماه نيقولا ، وترك له بعد موته ما بقى من أملاك الأسرة ، وفي عهد نيقولا هذا وهنت ثروة الأسرة وهناً شديداً ولكن لم تكن له يد في ذلك وإنما حدث هذا بسبب غيابه إذ أسره الفرنسيون ، وكان لم يتجاوز الثامنة عشرة أثناء حملة نابليون على روسيا ، وظل سجيناً بفرنسا حتى غلب نابليون على أمره فأطلقت سراحه جيوش الحلفاء الظافرة بعد دخولها باريس ... ولم يجد نيقولا ما يرأب به ما تصدع ويصلح ما فسد خيراً من زواجه بذات ثراء ، وتم له ذلك بزواجه من مارى فولكنسكى العظيمة الثراء الكريمة المحتد .

وكان لأسرة فولكنسكى إلى الثروة وعراقة الأصل ، الشمم والبطولة وقوة الروح واستقلال الرأى وصرامة العزم فتلك خلال ظهرت كلها أو بعضها في أفرادها ، ومن هؤلاء ثائر اشترك في ثورة الديسمبريين وعوقب بالنفي ثلاثين عاماً في سيبيريا حيث صحبته زوجته عن طوع ، ومنهم ابن عم له خاض المعارك ضد نابليون في حماسة وبسالة أعجب بهما نابليون إعجاباً حمله على أن يرسل في طلبه وهو جريح أسير وعرض عليه أن يرد إليه حريته إذا قطع على نفسه عهداً ألا يحاربه مدة عامين ولكنه رفض هذا العرض في شمم وكبرياء ...

وعرفت كذلك أسرة فولكنسكى بصلة النسب بين كثير من أفرادها وبعض ذوى المقدرة الفنية من المؤرخين والأدباء والنقاد والشعراء ، وكانت تربط مارى فولكنسكي وشائج الرحم من بعد بشاعر روسيا الأكبر بوشكين .

وكانت ضيعة ياسنايا بوليانا من نصيب مارى فولكنسكى عند زفافها إلى نيقولا تولستوى نالتها من أبيها كما نالت ذلك القصر الأنيق الذي استقرت فيه وزوجها عقب زواجهما ، وكان ذلك القصر الأنيق الذي تستوقف الأعين أخشابه الزاهية اللون في وسطه ويمتد جناحاه الحجريان المظلمان يمنة ويسرة إلى مسافة بعيدة ، يقع فوق مرتفع على مقربة من الضيعة . وفي اليوم الثامن والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٨٢٨ ولد فيه ذلك الغلام الذي يقف الآن وهو في الخامسة من عمره يطل من شرفته على الضيعة والنهر والغابات والقرية القريبة ، ويذكر ما أخبرته به المربية تاتيانا في رفق وهو أنه لم يعد بعيد صغيراً وأنه سيدخل حجرة الدراسة من غده فلا يبرحها إلا متى شاء معلمه أن يطلقه .

(يتبع)

العفيف